الوحي حقيقته ووظيفته..... (تتمة)

تتلو الكتاب، المصحف من حيث هو صحيفة نزل من السماء في التاريخ، وتنسى أن وحْيَه حيٌّ الآن؛ لأن كلام الحي حَيٌّ، والله هو الحيُّ الذي لا يموت، وكلامُهُ كذلك حيٌّ لا يموت.

وهذا معنى الوحي الذي نتحدث عنه في هذا السياق، **فشيء عظيم جداً أنك إذ تقرأ القرآن تشعر بأن الله يُحَدِّثُك، يكلمك، ولذلك كانت صلاة الليل، بل كل صلاة، مناجاة بين العبد وبين الرحمن بسبب ما يُتلى فيها من قرآن، طبعا إن كان على هذا الميزان.**

الشيء المهم هاهنا أيضا، أننا نتحقق من معنى آخر فَرْعٍ عن هذا؛ لأنك حينما تعرف ربك بالقرآن تعرف نفسك، وتدرك آنئذ بأنك -أنا وأنت- بأنني مجردُ عبد، وما أكثر ما ننسى بأننا عبيد، لا أحد منا قرر أن يُولَد في سنة ولادته، ولا اختار جنسه، ولا اختار أباه وأمه، ولا حتى اختار حياته عند التدبر والتعمق، ولا أحدٌ منا اختار النوائب -عافانا الله وإياكم من النوائب-، ولا اختار ساعة وفاته، الإنسان عبدٌ لا يملك نفسه، لا يستطيع أن يستيقظ متى يريد، وإنما نستيقظ جميعا عندما يأذن الله، وحينما لا يأذن لعبد من عبيده أن يستيقظ، فإنه لا يستيقظ إلى يوم القيامة.

فهذا ركن عظيم، وهذه أولى وظائف الوحي، القرآن الوحي، خبر جاء من السماء ليخبر الإنسان أنه مملوك، فلا يسرف على نفسه كثيرا، مملوك، وأن له رباً خالقه، وأن أمره -كل أمره- بيد هذا الخالق، وهذا مدار كل ما يُدْرَسُ في علم التوحيد من أوله إلى آخره.

الوظيفة الثانية: الوظيفة العمرانية:

الأمر الثاني: من وظائف الوحي الوظيفة العمرانية، عمران الأرض، فوجود الإنسان في الأرض ليس عبثاً، خلافته، استعماره فيها، كل ذلك لهذه الوظيفة، وهذا كله دائر حول معنى العبادة، عَبْد، بل عبودية، ليمارس العبد عبادته لله، فَيَعْمُرُ الأرض بأمر الله كما أمر الله، يصلح ولا يفسد، يبني ولا يهدم، ويمد أواصر الأخوة، ويُمَتِّنُ النسيج الاجتماعي، ويكون عنصرا إيجابيا فعالا في بناء العمران.

والعمران بالمناسبة في القرآن وفي السنة ليس مجرد بناء، أبدا، العمران روح، أما البناء بكل أنواعه إنما هو بصمات هذا الروح، بصمات، فالعمران الإسلامي يعني العمران الذي يبنيه المسلم تجد بصماته واضحة، بصمات المسلم علي ذلك العمران، البناء، الجدار، الحجر، يُعَبِّرُ عن خُلُقٍ إسلامي رفيع، يعبر عن خُلُق، يعبر عن أخلاق الحياة، وعن أخلاق التكافل بمال جدران المسلمين وبيوتهم، كثير من هذا يصدُق على العمارة الإسلامية القديمة، وككل شيء تأثرت البناية الحديثة بالعمران الآخر، وما من حجر إلا من ورائه رؤية، ونظر، وفلسفة. فنرجع إلى ما نحن فيه العمران بمعناه الشمولي يتعلق بسلوك الإنسان كله، عمران المادة، وعمران الروح، الأخلاق عمران، السلوك الاجتماعي عمران، المسجد عمران، الصلاة عمران، ولذلك عبر الله عز وجل أو مدح الله الذين يَعْمُرون مساجد الله يعمرونها بالصلاة، يعمرونها بالروح، لا تبقى خَرِبَةً خاوية على عروشها، فاستعمار الله الإنسان في الأرض هو توظيفه فيها، فإذا أقاله قبضَه إليه، الإقالة أو يعني باللغة المعاصرة، أو التقاعد يعني الوفاة لا وجود، لا وجود لعَطالة في شخص الإنسان المسلم على الإطلاق، العَطَالَةُ والبِطالَةُ هنا، في دماغ الإنسان.

المشكلة إذن أننا لم نتحقق بعد بمعنى الوحي الذي يَعْمُرُ حياتنا، وأنا على يقين لو أن المسلمين يأخذون القرآن بحقه آية آية، بل كلمة كلمة، لتخلَّقَتْ الحياة من جديد على موازين القرآن، والقرآن وحده دعوة كافية، القرآن مؤسسة، بل مؤسسات من العمل الدعوي والإصلاحي بكل فروعه، لكنه برنامج الله، ومنهاج الله، اليقين القطع، الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، فإذا وقع على شيء جعله أخضر وجعله يانعا وآناره، الكل يخضع له؛ لأن القرآن يطرق باب الفطرة، وهذا من الأسرار العظيمة التي لا توجد إلا في القرآن، نحن مسلمون ومؤمنون بأن الله سبحانه قد بصم على قلوب البشرية جميعا من يوم خلقها وذلك هو المسمى بالفطرة التي يولد عليها الإنسان، «كل مولود يولد على الفطرة»، وهي المذكورة بمعنى في قوله تعالى: ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى﴾الأعراف: 178) موجودون بالفطرة وإنما التحريف يأتي بعد النشأة في البيئة، فنتلقى الأديان من خلال الاجتماع البشري، أما القلب بالمعنى الروحي، أو قل الروح، أو النفس مؤمنة أصالة، فإذا جاء القرآن وطرق عليها ولو كان الإنسان يهوديا أو نصرانيا أو ما شاء أن يكون، فإن لكلمات الله أثرا على قلبه، وكثيرا ما قرأنا وسمعنا أثر القرآن على قوم أعاجم لا يعرفون من العربية شيئاً.

كتب أحدهم منذ مدة في الأدبيات، ولعله أحمد أمين، يعني منذ مدة، القرن الماضي، أن أحد المستشرقين سمع القرآن في مصر فبكى، قيل له: أتبكي له ولا تؤمن به؟ قال إنما أبكاني الشجا، والشجا عبارة عن حزن رقيق عميق يقع بالقلب، فما الذي أشجاه إذن؟ القرآن انطلق على قلبه، وقال قلبه هذا الكلام -أي جنسه-؛ لأنه كلام الله جنسه، طبيعته، مادته، صنفه، يقول القلب الروح، سمعته من قبل، سمعته من قبل؛ لأن الله خاطب الذرية وهي في عالم الذَّرِّ، وإجماعُ أهل العلم إلا من شَذَّ أن الله خلق الأرواح قبل الأبدان، ولكم أن تتأملوا حديث الصحيحين في قول الرسول ﷺ: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»، أرواح، متى تعارفت؟ في عالم الغيب قبل أن تُزرع في الأجساد، ولذلك أنا وأنت في التجربة الاجتماعية العادية تجد شخصا فيقع في قلبك حبه والانسجام معه، مع أنك لم تره قط في حياتك، تقول والله كأني أعرفه منذ عشرين سنة، وترى آخر فتفتر منه، وما بينك وبينه عداوة، بل لم تره قط، أي مؤثر هذا؟ فهي مؤثرات نفسية عميقة، بل ضاربة العمق في جذر قلب الإنسان.

فهذه الوظيفة التي هي العمراني هي رسالة ثانية، نعرف الله أولا، رسالة أولى، ثم نعرف وظيفتنا في الأرض.

الوظيفة الثالثة للوحي التعريف بالآخرة:

الأمر الآخر أو الثالث والأخير نعرف الآخرة، **لو قرأت كتاب الله من أوله إلى آخره لوجدت ثلثي آيه، أو يزيد يتكلم عن الآخرة، ولك أن تقول هكذا، على سبيل التعريف: القرآنُ هو كتاب الآخرة.**

هذا المعنى العظيم نحن نؤمن به عقيدة؛ لأنه ركن من أركان الإسلام، لكنه يغيب من شعورنا اليومي؛ لأن الإنسان ضعيف ويغرق في الجزئيات، يعني الإنسان يغرق في الجزئيات، ولا يستطيع أن ينظر نظرا كليا إلى العمر وإلى الحياة إلا في الخَلَوَات يعني في مجال يجلس وحده يتأمل، أما داخل البنية أو الحركة الاجتماعية وهي حركة تشتعل بالجزئيات اليومية، هذه الجزئيات اليومية تجعلنا ننسى حقيقة وجودنا، بل نتوهم من حيث لا ندري أننا لن نموت أبدا، مع أننا يعني قبل أن نُؤَذَّنَ أو نُعْلَمُ أو نُخْبَرُ بالرحيل في أي لحظة، بل تنظر إلى الجيل السابق نُسِخ، نَسَخَهُ هذا الجيل، أبناؤه، أنا حينما أنظر إلى ابني ينمو بين يدي أفرح، قرة عين، لكنني أرى فيه ناسخاً لحياتي، وعلى قدر نموه يكون شعوري بأن الرحيل قد قرُب، هذا الأمر عام، ولكن مشكلتنا أننا نقول إذا عمت هانت، لم تَهُنْ، ولا تهون أبدا؛ لأن كل إنسان سيعيش التجربة وحده، فهذا غلط عند كثير من الناس، إذا عمت هانت، لا، قضيةُ الموت وقضيةُ الآخرة، وهي الرسالة الكبرى في القرآن ليست أمراً هيناً، ولا هي مما يعم الناس فيتفرقوا فيهم، لا، لا يتفرقوا، لكل مقداره وذوقه، ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾، وعبر بهذا التعبير العجيب، العجيب حقا، ذائقة، كان يمكن أن يقال كل نفس تموت، وهو كذلك، لكن عبر بالذوق اسم الفاعل، الدال على التصاق الفعل بصاحبه، وأنه لا أحد ينوب عن أحد فيه، وأن لكل إنسان موتته، أي حقيقة الموت، وتجربة الموت، هذه العبارة التي أبحث عنها، لكل إنسان تجربته سيجربها، سيذوقها؛ لأن الأذواق لا تُنْقَلُ خِبْرَاتُها أبدا، لا في عالم المادة، ولا في عالَم الروح، لا تستطيع أن تشرح لإنسان حلاوة العنب، مستحيل، الحل الوحيد أن تعطيه عنبا يأكله، آنئذ فقط سيعرف معنى حلاوة العنب التي أنت تتحدث عنها، لا تستطيع أن تَنْقُلَ الألوان إلى بصير فاقد للبصر، مستحيل، طبعا إذا كان لَم يُبصر قبل، بل حتى ولو كان قد أبصر؛ لأن الألوان لها تجليات، غروب الشمس كل يوم له تجلٍّ، شروق الشمس كذلك، لون البحر، لون السماء، كل شيء كل شيء، مازلت أذكر يوماً لا أنساه، رجل كفيف البصر كان يجلس بجانبي في مكان ما -حفل- فكنا نتذاكر، فسألني عن لون الفجر، والله شعرت بالحرج، وعجزت؛ لأني أعرف أنه كان أكْمَهَ يعني وُلد أعمى، من يستطيع أن يشرح له لون الفجر؟ أبدا، لا يستطيع أحد؛ لأن الأعمى الذي سيدرك الألوان سيدركها بالذاكرة وهذا فاقد لذاكرة الألوان؛ لأنها لم تسجَّلْ قط في ذاكرته، هذا مثل ضربتُه في مجال الذوقيات.

لأن اللون ذوقٌ، والسمْع ذوق، يعني الأحاسيس المادية أذواق، ليس فقط اللسان هو الذي يذوق، هذا في الأطعمة، كل شيء يُدْرَكُ بالحسِّ ذوق، فما بالك بعد ذلك بأذواق الروح، أدهى وأعظم، والموت ذوق من أذواق الروح، وهذا ركن ورسالة من أعظم رسالات القرآن بما يتبعها من حقائق اليوم الآخر، ولذلك قال عز وجل في كتابه ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾(ق: 22) بعد الموت، من الحدة حديد، من الحدة والدقة، وترى الأشياء على حقائقها؛ لأنك تجربها الآن.

القرآن الوحي في خاتمة الكلام يُعَرِّفُنا بهذه الأمور الثلاثة:

معرفتنا بالله.

ومعرفتنا بوظيفتنا.

ومعرفتنا بمآل الحياة فوق الأرض، مآلها، مصيرها، وأن الدار الآخرة هي الحيوان، أي هي الحياة الحقيقية.

وهذه المداخل الثلاث هي مفاتيح لكل أركان الإيمان بعد ذلك في القرآن، وهي مفاتيح فهْم الشريعة بكل حقائقها، سواء تعلق الأمر بالعبادة أو بالعادة، أو بالنظام الأسري في القرآن، ما شئت ما شئت ما شئت.

إذا لم تكن على معرفة بالله المتكلم بالقرآن.

ولم تكن على معرفة بوظيفتك فوق الأرض التي ناطها بك هذا القرآن.

ولم تكن على يقين بالمآل الذي سنصير إليه.

لن تقرأ القرآن ولو تلوته مراراً، فقراءة القرآن إنما هي بالوحْي، وبالوحْي فقط أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إذا لم تكن على معرفة بالله المتكلم بالقرآن.
ولم تكن على معرفة بوظيفتك فوق الأرض التي ناطها بك هذا القرآن.
ولم تكن على يقين بالمآل الذي سنصير إليه.
لن تقرأ القرآن ولو تلوته مراراً، فقراءة القرآن إنما هي بالوحْي، وبالوحْي فقط